الجنرال يعقوب ومشروع الاستقلال الأول

نسيم مجلى

ظهر المعلم يعقوب فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وسطع نجمه إبان الحملة الفرنسية على مصر، ولعب دورا هاما فى ضرب الاتراك والمماليك لأنه كان يرغب فى تخليص مصر منهم، لكن سوء الحظ كان يترصده فمات وهو على ظهر الباخرة قبل أن تطأ أقدامه أرض فرنسا ويكشف عن أهدافه الرئيسية من الرحلة0 ورغم أن التاريخ قدسجل مشروعه الخاص باستقلال مصر إلا أن موته المباغت قد ألقى ظلالا من الغموض حول هذا المشروع وأتاح الفرصة للاختلاف فتقييم دوره وتحديد أهدافه0

وكان المؤرخ الكبير ممحمد شفيق غربال أول من اكتشف وثائق هذا المشروع فكتب عن يعقوب وعن دوره الريادى فكتابه "الجنرال يعقوب والفارس لاسكارس" الذى نشرته دار المعارف سنة 1932، (و الذى نقدمه فى الفصول التالية) ، وقارن فيه بين يعقوب وبين زعماء الكفاح الشعبفى تلك الفترة من أمثال السيد عمر مكرم وغيره ثم وضع يعقوب فى مكانة متقدمة وذلك نتيجة لإحساسه العميق بقوميته المصرية و بعد نظره و تلمسه الوسائل العملية لتحقيق الاستقلال الوطنى .

وكان آخر من دخل الى حلبة الجدال حول يعقوب هو الدكتور أنور لوقا بكتاب أسماه " هذا هو المعلم يعقوب " الذى

صدر عن المجلس الأعلى للثقافة سنة 2002، والذى يؤكد فيه أن يعقوب رجل ينتمي إلى التاريخ الاقتصادي – الذي تحول تحولا جذريا في عصره – ولا ينتمي مطلقا إلى الطائفية (فكلمة "قبطي" لم ترد أبدا في مشروعه) حيث يقول:

من جذوره العريقة بالصعيد ، ودرايته العملية بالقيم الاقتصادية ، وانخراطه في تيارات التواصل التجاري الدولية المتلاقية في مصر = رغم القيود المحلية = نبع مشروع استقلال مصر ،و أصبح عبر الأحداث غاية كفاحه المتواصل ضد الرجعية.

والدكتور أنور لوقا من أقدر الباحثين على كشف خبايا هذا الموضوع الذي يؤرخ لفجر النهضة المصرية ، لأنه يقع في بؤرة اهتماماته البحثية فقد حصل على دكتوراه الدولة من السربون سنة 1957 في الأدب المقارن برسالة رئيسية عنوانها: " الرحالة والكتاب المصريون في فرنسا خلال القرن التاسع عشر" ، ورسالة تكميلية عنوانها " دراسة تأصيلية للنص الطهطاوي – تخليص الإبريز في تلخيص باريس" ثم ترجمة فرنسية له". ثم استمر في أبحاثه على مدى أربعين عاما ليتتبع آثار " المهاجرين المصريين" في فرنسا. معتمدا في البداية على وثائق قصر فانسين Vincinnes (أوراق " جيش الشرق" Armééd' orient) و وثائق وزارة الخارجية (Quai

d'Orsay) ووزارة الداخلية (Archives Nationales) ثم راح يستقصي أبعاد هذا الموضوع في دور المحفوظات المتفرقة في جنوب فرنسا ، وخرج من ذلك كله بحصيلة معرفية بالغة الأهمية.

من ذلك مثلا ، الأثر الذي أحدثه وصول المهاجرين المصريين إلى فرنسا في الأزياء وفي الفنون الجميلة وفي الأدب والفكر مما أصبح من قيم الحياة الرومانتيكية في عهد الإمبراطور نابليون. كذلك اكتشف من بين الجنود المجهولين الذين ذهبوا مع يعقوب رواداً كباراً في الفكر واللغة والأدب. فهو يقول: " وممن صنعوا نهضة الاستشراق اللغوي في أوروبا فتى مغمور من أبناء أسيوط عمل كاتبا عند يعقوب ويحمل اسمه- إليوس بقطر – قاموس فرنسي عربي وضعه فأصبح عمدة الدارسين وبداية نقل ألفاظ الحضارة العصرية." بالإضافة إلى العلامة القس يوحنا الشفتشي الذي جمع بين تعمق اللغات القديمة فكان العضو الشرقي الوحيد في لجنة تأليف موسوعة " وصف مصر" ورغم دوره فى المسئولية العسكرية ضابطا في الفيلق القبطي، إلا أن التاريخ قد نسى وجوده مع أن شامبليون استقي منه صوتيات اللغة القبطية، فكأن باعث الحضارة الفرعونية تسلم منه المفتاح الذى فك به رموز الهيروغليفية.

وبعيدا عن هذه الجوانب الطريفة والهامة ، أحب أن أعرض على القراء لمحة من حياة :يعقوب0

ولد المعلم يعقوب في ملوي عام 1745, والتحق في عهد على بك الكبير بخدمة سليمان أغا الإنكشارية أو رئيسها واستطاع من خلال إشرافه على إدارة أملاك الأغا أن ينمي ثروته الخاصة ، حتى أصبح من الأثرياء وبنى قلعة على رأس سوق القبيلة عند حارة النصارى.

وحين نشب القتال بين مراد بك وجيش قبطان باشا اشترك المعلم يعقوب مع مخدومه في هذه الحرب ، وظهرت مواهبه في القتال كما ظهرت في الإدارة. وعندما دخل الفرنسيون مصر ، التحق المعلم يعقوب بخدمتهم وانضم إلى حملة الجنرال ديزيه إلى الصعيد لمطاردة المماليك , وحارب المماليك بشجاعة مما ساعد في القضاء على بعض أوكارهم كما حدث في بلدة العتامنة من أعمال محافظة أسيوط ، مما جعل الجنرال ديزيه يهنئه ويقدم له سيفا تذكاريا تقديرا لبسالته.

ولما غادر نابليون مصر عاد المعلم يعقوب إلى القاهرة وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد ، وعينه قائدا للفيلق القبطي الذي شكله في مصر ليعاون الفرنسيين في حربهم ضد المماليك والأتراك. ثم عين المعلم يعقوب مستشارا لمسيو استيف مدير الإيرادات العامة ورقاه القائد العام عبد الله جاك مينو إلى رتبة

جنرال وجعله مساعدا للجنرال بليار في مارس 1801 للدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيس التركسو الإنجليزي .. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطي بمصير الجيش الفرنسي ،و عند تسليم القاهرة في يونيه سنة 1801 دخل الجنرال يعقوب في إتفاقية التسليم.

ورحل الجنرال يعقوب ومعه جماعة من فيلقه القبطي مع القوات الفرنسية عند جلائها عن مصر ولكن الجنرال يعقوب كان يحمل في جعبته مشروعا خطيرا كان في نيته عرضه على الإنجليز والفرنسيين وهذا هو " مشروع استقلال مصر".

ويلخص لويس عوض مشروع الجنرال يعقوب لاستقلال مصر على النحو التالي: " ومحور نظرية الجنرال يعقوب التي يبسطها أمام الإنجليز ، هو أن استقلال مصر في مصلحة إنجلترا أكثر من أي بلد آخر فإنجلترا سيدة البحار وهي تستطيع أن تمنع بأساطيلها فرنسا من الاستئثار بمصر، ولكن إذا حاولإنجلترا نفسها غزو مصر فإنها ستصطدم بأكبر قوة عسكرية في أوروبا ، وهي فرنسا ، فمصر المستقلة إذن هي الحل الوحيد الذي يوفق بين مصالح إنجلترا ومصالح فرنسا ، مع مزايا إضافية للإنجليز وهي أن تجارتهم البحرية سوف تنتفع من زراعة مصر التي لا يمكن أن تزدهرإلا في جو يسوده السلام ،

كما أنها ستنتفع من منتجات أفريقيا التي تعد مصر بابها الطبيعي.

وسوف تحافظ مصر على استقلالها في المرة الأولى على الأقل بموافقة الدول الأوروبية. فإذا لم تكف القوى الأوروبية المتضافرة للحيلولة دون عدوان الترك والمماليك على مصر ، فالجنرال يعقوب يرى الحل في وجود قوة أجنبية مرتزقة في مصر قوامها بين 12 ألف او 15 ألف جندي تتكون منها نواة الجيش المصري. وهي في نظره كافية تماما لرد عدوان الترك على حدود الصحراء وقمع المماليك في داخل البلاد..

أما نظام الحكم الذي يقترحه الجنرال يعقوب لمصر المستقلة فهو قيام حكومة وطنية يكون هدفها الأول تحسين حال الفلاح. وهو يرى أن طول استعباد المصريين تحت الترك والبكوات المماليك قد حرم مصر من النور الكافي لتكوين رأي عام بصير يمكن أن يخرج منه عمل سياسي لتغيير نظام الحكم ، فهو يرى إذن أن كل تغيير في نظام الحكم لابد وأن يأتي من القمة، أي من الحاكم ولكن يعقوب يرى أن إنشاء حكومة قومية تعمل بروح العدل المقرون بالحزم و تستهدف إسعاد المصريين ، لا شك سيؤلف من حولها قلوب الأكثرية الساحقة من سكان البلاد الوادعين الجهلاء إلا أن الجنرال يعقوب لا يفصل فكرته

عـن تكـوين هـذه الحكومـة القوميـة أو سـلطاتها أو طريقـة ممارستها لحكم البلاد.

وبعد تحليل مستفيض لأحوال مصر آنذاك يميز الدكتور لويس بين ثلاث تيارات كبرى في تلك الفترة العصيبة من تاريخ البلاد:

1- تيار " أي شئ إلا حكومة الأوروبيين" ولو كان استمرار حكومة الترك والمماليك وقد جرف هذا التيار المتطرف المصريين الذي قاتلوا تحت لواء العثمانيين في ثورة القاهرة الثانية بين 20 مارس و 21 أبريل 1800 بقيادة ناصف باشا ونصوح باشا.

2- تيار " أي شئ إلا حكومة الترك والمماليك" ولو كان قبول حكومة الأوروبيين ، وقد جرف هذا التيار المتطرف الذين قاتلوا المماليك ثم الترك تحت لواء الفرنسيين بقيادة الجنرال يعقوب وهم الوجه الآخر لثورة القاهرة الثانية.

3- تيار " إنقاذ ما يمكن إنقاذه" ممثلا في علماء الأزهر وأعيان البلاد المعتدلين الذين تكونت منهم أجهزة الحكم القومي ولا سيما الديوان العمومي والديوان الخصوصي. وهو تيار يقوم على قبول الأمر الواقع بالقوة القاهرة ريثما تسنح الفرصة لتغييره. وقد استمرت هذه التيارات

تتلاطم في محيط السياسة المصرية والفكر المصري ولم تندمج في تيار واحد كبير بصورة ملموسة حتى ثورة 1919.

جاء هذا الكلام في كتاب لويس عوض " تاريخ الفكر المصري الحديث" سنة 1969 وبعدها أخذت تنهال عليه الاتهامات من جلال كشك ثم محمود شاكر ومحمد عمارة وأحمد الصاوي وآخرين وقد أوذي لويس عوض كثيرا من هذه الهجمات الظالمة ، وكتب شهادته عليها في سيرته التي سماها " أوراق العمر" فقال :

" جر ذلك على الكوارث لأنه فتح دمل التعصب الدينى ببعض المثقفين المصريين فطفح كل مافيه من قبح على السطح وسوف يحاسب التاريخ الرجعية العربية حسابا عسيرا لأنها سجدت أمام التمثال الذي أقامه شفيق غربال للجنرال يعقوب ثم مزقتنى إربا لمجرد أني رددت آراءه وترجمت وثائقه ونقادي لا يستطيعون إدعاء الجهل لأني أصلت لهم كل شئ قلته عن الجنرال يعقوب في شفيق غربال فإذا كانوا قد رجعوا إليه ومع ذلك تعمدوا تمزيقي لطرحي قضية " يعقوب اللعين" بهذه الحيدة أو بشيء من التعاطف فإن هذا يثبت سوء نيتهم. وإذا لم يهتموا بالرجوع فهذا يثبت انحطاطهم لإصرارهم على الإدانة رغم وجود شهود النفي. وعلى كل فقضية الجنرال يعقوب

أخطر من أن تصرف بكلمتين فلي إليها عودة في مكانها الطبيعي".(صـ 329) .

ومن الملاحظ أن من كتبوا قبل ثورة يوليه 1952 يجمعون ، مسلمون ومسيحيون ، على تمجيد يعقوب ورفعه إلى مرتبة البطل الوطني و اعتباره رائد دعوة الاستقلال. وفي مقدمة هؤلاء الدكتور شفيق غربال في كتابه " الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس" 1932 والأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف الذي اشترك في تحقيق كتاب الجبرتي " مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس" في مقاله " المعلم يعقوب وموقفه من الحملة الفرنسية " بجريدة البلاغ (1947/9/22) وفيه يقول إن يعقوب كان أول سياسي مصري فكر في جعل المسألة المصرية مسألة دولية على أن تستقل مصر استقلالا تاما عن الحكم العثماني وأن تكون باستقلالها هذا واسطة لكبح أطماع فرنسا وإنجلترا وهما الدولتان اللتان كانتا تتصارعان لتوطيد النفوذ في مصر وحوض البحر المتوسط.

وعلى نقيض هذا جاءت كتابات الستينات التي نشرت ردا على الدكتور لويس عوض.. فقد أصر كتابها على إدانة يعقوب واتهام لويس عوض بالفرعونية والطائفية.. ويرجع سبب هذا التناقض في رأي إلى أن شفيق غربال ومحمد فهمي عبد اللطيف وغيرهما كانوا يعيشون في مناخ الديمقراطية الليبرالية

في مصر الثلاثينات والأربعينات وكان لديهم الحرية والدافع لرؤية الواقع التاريخي لمصر العثمانية على حقيقته دون تحيز أو تزييف. أما كتاب الستينات وما بعدها الذين عارضوا لويس عوض فقد تأثروا بأيديولوجية الوحدة القومية في عهد عبد الناصر أو أيديولوجية الدولة الدينية التى يحلمون بها واسقطوا هذا الإحساس على مصر العثمانية الإسلامية فرأوا يعقوب خائنا أو في أحسن الحالات منشقا على نظام المجتمع الإسلامي كما يظن الدكتور أحمد حسين الصاوي في كتابه " المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة"

فالواقع أن يعقوب لم ينشق على حكم الأغلبية المسلمة من المصريين. إذ كان الحكم في يد الوالي العثماني ومماليكه وعساكره. ولم يكن فيه من الإسلام إلا الواجهة. أما ما يقوله الدكتور أحمد الصاوي من أن مصر تحكم في ظل الخلافة العثمانية تبعا للشريعة الإسلامية " غالبية من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حددت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم دون تعصب أو تطرف" (ص 80). فهذا كلام بعيد عن الحقيقة ومرجعنا هو كتاب " المجتمع والشريعة والقانون" للدكتور محمد نور فرحات (دار الهلال يونية 1986) حيث يقول:

" وغلبة قيمة النظام على قيمتي العدل والحرية ظاهرة يلحظها الباحث في النظام القانوني لمصر العثمانية، فلم يكن النظام القانوني العثماني يولي اهتماما يذكر لقضية العدل في توزيع ثروة البلاد ، كما أن فكرة المشاركة السياسية من الشعب لولي النعم في سلطته كانت أقصى المحرمات قاطبة التي يعاقب عليها بعقوبة البغي والإفساد في الأرض (ص 20) فكيف سمح الدكتور أحمد الصاوي لنفسه أن ينسب هذا المجتمع للشريعة التي هي العدل و الرحمة ، أو يتكلم عن أغلبية او أقلية حتى بالمفهوم الديني.

لم يكن هنالك شئ من هذا ، وكما يقول شفيق غربال " أول ما في تأييد يعقوب للتدخل الغربي هو تخليص وطنه من حكم لا هو عثماني ولا هو مملوكي , وإنما هو مزيج من مساوئ الفوضى والعنف والإسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة. فرأي يعقوب أن أي نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت. وثاني ما في تأييده للاحتلال إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية في ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية. ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال وإلا لما سمح الفرنسيون بإنشائها غير أنه يلزمنا أن نذكر أن القائد كليبر نفسه الذي أذن بإنشاء القوة

القبطية كان لا يرى البقاء في مصر. ثم يشير الدكتور شفيق غربال إلى " أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس يجعلها العنصر المرجح في مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها".

ثم يمضي شفيق غربال في توضيح رأيه قائلاً:

" كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسي يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر في أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً. وبغير هذه القوة يبقي المصريون حيث كانوا بالأمس : الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبي الذي لا يؤدي إلى تغيير جوهري والذي يدفعون هم ثمنه دون سواهم.. وهنا الفرق الكبير بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمي إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر مكرم يعتمد على الهياج الشعبي الذي لا يصلح قاعدة للعمل السياسي الدائم المثمر".

ثم يضيف غربال : " وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر مكرم لما وجد أمامه محمد على ليس خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التي اختارها يعقوب وتلك الأداة التي اختارها السيد عمر مكرم

ليس في الواقع إلا مظهرا لفروق أعمق. إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان". بعكس يعقوب الذي .. " لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد في تعزيز مصير البلاد بدلا من أن يبقي حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصورا على التفرج أو الاشتراك في نهب المهزومين .. أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك وعوّل على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذي ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين في جودة نظامهم وبخاصة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان".

وقد تميز كتاب أنور لوقا بشجاعة الرأى فى نقده الصريح لخصوم يعقوب وكشف أكاذيبهم ونفاقهم بداية من الجبرتى "الذى صور يعقوب فى موقف الموتور الحانق والمدافع عن أقليته القبطية المضطهدة، وهى نفس الصورة التى نجدها بعد أكثر من قرن ونصف فى كتابات المتطرفين الذين هبوا لمعارضة لويس عوض حين نسب الى يعقوب مذهبا سياسيا حديثا0ولماذا ننسى أن الشيخ الجبرتى نفسه قد تعاون مع الفرنسيين إذ كان عضوا

عـاملا " بالـديوان " فـى عهـد" مينـو" –القائـد الفرنسـى صـاحب نظرية احتلال مصر احتلالا دائمـا؟ وتكفيرا عن ذنبـه هذا سـارع الجبرتـى الـى الترحيب الصـاخب بعودة الاحـتلال التركـى، وأهدى للصدر الأعظم يوسف باشا كتابـه" مظهر التقديس بـزوال دولـة الفرنسيس"وهذه أول سطوره :

" حمـدا لمـن جعـل كلمـة الـذين كفـروا السـفلى وكلمـة الله هـى العليا،وجعل الدولـة العثمانيـة، والمملكـة الخاقانيـة بهجـة الـدين والدنيا "

هـذا مايقولـه الجبرتـى عـن الدولـة العثمانيـة التـى أذلـت العـرب وخربـت ديـارهم وأورثـتهم التخلـف المـزمن الـذين لـم يسـتطيعوا الافلات من قبضته حتى اليوم 0

ومن المهم أن يعرف القارىء أن المصريين قد حرم عليهم الاشتراك كجنود عاملين فـى الجيش منذ الاحتلال العربـى لمصر سنة 641 وهذا مايؤكده كتـاب "الـوطن الأم– دراسـة فـى الثقافـة القوميــة المصـرية – تأسـيس تـاريخى " حيـث يقـول المؤلفـان(أحمد عاشور وصبحى السيد عاشور):

" قـام نظـام الادارة العربيـة فـى مصـر علـى عدة ثوابت لـم تتخـل عنها، كان إبعاد المصريين عن الجيش العامل أولها، خشية أن يحيـى فـى المصريين روح القوميـة المصرية وأن يقومـوا بطـردهم

من مصر متى حانت لهم الفرصة فلم يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية "

وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه العثمانيون والمماليك وكان يعقوب هو الاستثناء فقد تعلم فنون الفروسية والقتال وشارك فى معارك الحرب التى دارت بين جيش مرادبك وجيش قبطان باشا التركى الى جانب مخدومه سليمان بك ثم قاتل المماليك بعد وصول الحملة الفرنسية وكان الطليعة والرائد فى هذا المجال المحرم على المصريين وكان طبيعيا أن يفكر فى تكوين جيش مصرى يحمى استقلال هذا الوطن بعدخروج الفرنسيين (من أهل الفلاحة والصناعة " حسب تعبير شفيق غربال" وكان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا "

والسؤال المنطقى الذى يطرح نفسه هنا : هل كان يمكن ليعقوب أن يدعوالمصريين المسلمين للاشتراك فى هذا الجيش؟ وكيف يكون ذلك، اذا كان الشيخ محمد كريم يقول للقائد الفرنسى انه يدافع عن أرض السلطان ولم يقل عن'أرضنا أو أرض المصريين والشيخ عمرمكرم ومعه الشرقاوى والسادات

وغيرهم من زعماء المسلمين كانوا مصممين على البقاء فى تبعية الدولة العثمانية وتحت حكم المماليك مكتفين بالوساطة بين العامة والحكام فى أوقات الأزمات مراعا ة لمصالحهم الخاصة مع هؤلاء الحكام ولم تطرأ على أذهانهم فكرة الاستقلال بعكس يعقوب الذى يريد التخلص من الأتراك والمماليك والفرنسيين واقامة حكومة وطنية من المصريين مسلمين ومسيحيين 0كما أن مشروع يعقوب لاستقلال مصر وحيادها بين انجلترا وفرنسا لم تذكر فيه كلمة " قبطى " أبدا فيعقوب تأثر بفكر الفرنسيين عن الحرية والأخاء والمساواة وكان متوافقا فى فكره وسلوكه ووصل به هذا التحرر أن يتزوج بزوجة سورية كاثوليكية وهو مايعتبر خروجا على الكنيسة القبطية ولم يكن ذلك إلا لأنه لم يعرف التعصب الطائفىأو المذهبى ، وانما كان التعصب فى موقف الآخرين الذين قسموا البشر الى مسلمين وكفرة وحرضوا مرتين على قتل الاقباط وهتك أعراضهم ونهب ممتلكاتهم والفضل يرجع الى يعقوب وأتباعه الذين صدوا حملات الابادة التى كان يقودها حسن الجداوى ودراويشه بتحريض من العثمانيين وعملائهم من المصريين0 وهذا مسجل بوضوح عند الجبرتى ولاينكره الا من أعماهم التعصب والذين يستكثرون على الأقباط حق الدفاع عن النفس أو حق المبادرة لحماية الوطن .

يشرح الدكتور أنور لوقا الأسباب الحقيقية التى حتمت تكوين الفيلق القبطى تحت عنوان (حتمية المقاومة) فيقول :

تولى يعقوب بعد عودته من الصعيد ، فى سبتمبر 1799 ، إدارة النظام المالى فى مصر ، إلا أنه لم يستطيع تحقيق أى إصلاح تحت ضغط الأحداث التى تلاحقت و أجبرته على تكوين قوة مسلحة .

كان كليبر قد عقد مع ممثلى الدولة العثمانية فى 24 يناير سنة 1800 معاهدة العريش التى نصت على جلاء الفرنسيين و جدولته . و طوت الدولتان صحيفة القتال . و لكن الحكومة الإنجليزية رفضت إقرار الاتفاقية فانتهز العثمانيون الفرصة و نقضوا عهدهم . و زحف يوسف باشا – الصدر الأعظم حتى بلبيس ، و تقدمه طليعة جيشه بقيادة ناصف باشا نحو المطرية و هب الفرنسيون غاضبين فهجموا على الاتراك هجوماً حاسماً فى موقعة عين شمس (20 مارس 1800) و هرب ناصف باشا و بعض رجاله فتسللوا إلى القاهرة و معهم من المماليك إبراهيم بك و الألفى و حسن الجداوى . و يسجل عبد الرحمن الرافعى " و مع أن ناصف باشا كان فى الواقع فاراً من ميدان القتال ، و بالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثمانى ، فإن الاشاعات كانت قد طارت من المدينة

بأن الجيش الفرنسى انهزم " . و أشعل الهاربون . ليقلبوا الأوضاع . فتنة طائفية احتدمت ضد الأقباط . و يلقى الجبرتى المسئولية على نصوح باشا الذى نادى " اقتلوا النصارى و جاهدوا فيهم " و يبرز دور الحجازية و المغاربة فى ارتكاب المنكرات من نهب و قتل ، و منهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعاً فيما على رأسها و شعرها من الذهب " و ارتاع بعض أغنياء الأقباط فغادروا الحى و لجأوا إلى دور بعض أصدقائهم المسلمين فى مصر القديمة . و لم يتزعزع يعقوب بل تحصن فى الحى و نظم الدفاع عنه و العيش فيه بشجاعة و حكمة ، طول حصار دام عشرين يوماً و يقول الجبرتى : " أما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى ، و استعد استعدادا كبيرا بالعسكر و السلاح و تحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) ، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه " .

و أسفرت المحنة عن تكوين جيش من الأقباط ، نظمه يعقوب على نفقته الخاصة ، و جمع فى صفوفه شباباً من القاهرة و من الصعيد . و تلك ظاهرة فذة فى تاريخ مصر : جيش وطنى لاحظ شفيق غربال أنه " أول جيش كون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة " . و ارتدى هؤلاء الجنود زياً خاصاً ، و دربهم ضباط فرنسيون على أساليب الدفاع و القتال الحديثة ،

تحت إشراف المعلم يعقوب ، الذى قلده كليبر قيادة الفيلق ملقباً إياه أغا .

و قد ذهب بعض الكتاب إلى إدراج هذا الفيلق القبطى فى قائمة التشكيلات التى استحدثها بونابرت فى مصر و ضمها إلى وحدات جيشه للاستعاضة بها عما كان يفقده من الرجال و اختصاصهم منذ انقطعت صلته بفرنسا بعد شهر واحد من نزوله مصر إذ حطم الانجليز اسطوله فى موقعة أبى قير البحرية (أغسطس 1798) . كانت تلك الفرق كما تدل عليها اسماؤها . " الإنكشارية " ، و " المماليك " ، و " اليونان "، " السوريون " . تتشكل من أغراب نزحوا إلى مصر وافدين من مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية ، فهم أشبه بالجنود المرتزقة فى العصور السابقة . و يكفى لتمييز الفيلق القبطى أنه لم يظهر إلا مؤخرا . فى أبريل 1800 . أى بعد إنقضاء ثلاثة أشهر على تقرير جلاء الفرنسيين فى معاهدة العريش ، و أنه تعبير عن مقاومة حتمية ضد المماليك و الترك فى سياق علاقة سياسية ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية ، و أنه تنظيم صدر عن تمويل مالى ذاتى ، و ستتجلى هذه الأصالة فى مشروع استقلال مصر الذى أصبح هدف المعلم يعقوب .

ويعلق الدكتور أنور لوقا على هذا بقوله:

" لذا استعصى على خصوم لويس عوض – الذي أهمل بدوره التاريخ الاقتصادي – أن يقيسوا معه في مجال السياسة وحدها جرأة الدور الذى أداه يعقوب , فى مرحلة التحول التاريخي الداهم التي اجتازها , وأن يعترفوا بفضل هذا الرجل إذ اختط فى معمعة تلك الأحداث خطة مصر كأمة متماسكة. فلم ترد فى مشروع يعقوب اطلاقا كلمة "قبطى" وانما كانت مصر – أرض الوطن شغله الشاغل , بشخصيتها الأصيلة , و ثروتها , و موقعها التواصلى بين الأمم , دون ممالاة للترك و المماليك و الفرنسيين و الإنجليز المتصارعين عليها "كالكلاب النوابح"

ومن المؤكد أن "قبطية" يعقوب – التى جلبت عليه اللعنات حتى اليوم – كانت نعمة كبرى , أنارت وعيه و فطنته , ولولاها لفقد وضوح الرؤية و تخبط 0.لقد أدرك إدراكاً داخلياً – وقد انتبذ فى طليعة الأقلية المصريةالساهرة مكانا ضمن له استقلالاً و نفوذاً معاً – إن الأوضاع تتحرك وأن موازين القوى تتغير, وأن عهد اغتصاب الترك و المماليك لبلاده قد انتهى , وفى محل السلطة الذى خلا ستحقق مصر وظيفتها الفطرية و الرئيسية اللازمة للجميع, ألاوهى التوسط بين الجنوب و الشمال و الشرق و الغرب. سيقولها جمال حمدان فى شرحه الجغرافى للموضع و الموقع , وقد اثبتت الأيام أن تخطيط يعقوب السياسي ما كان

سوى ارهاص بالحياد الإيجابي المقبل , الذى ستبتدعه مصر, و بمبدأ عدم الانحياز الذى ستنتزعه مصر.

لعل انحسار بعض العقليات دون هذا التقدير هو الذى يصدمها بظهور تلك الزعامة قبل أوانها. غير أن المؤرخ الحق هو الذى يصل بين العصور و الدول و التيارات."

بقيت هناك نقطة واحدة تحتاج الى توضيح بالنسبة لمشروع الاستقلال الذى حمل لواءه يعقوب وشرحه لقائد السفينة الانجليزيةقبل موته المفاجىء، اذ حاول بعض المتطرفين التشكيك فى نسبته الى يعقوب بدعوى أنه من تفكير سكرتيره لاسكارس الذى كان يقوم بالترجمة ، وهو أمر مضحك يدل على تحكم عقدة الخواجة فى هذه العقليا ت فحتى الاستقلال لابد أن نستكثر التفكير فيه على أنفسنا، مع أن كلام شفيق غربال واضح فى هذه النقطة بالتحديد إذ يقول(ص):

"يحق لنا أن نقرر أن كلمة الوفد المصرى والأدلة التاريخة والفلسفيةمن أفكار لاسكارس0 وأن يعقوب لم يقرر إلا الفكرة الاستقلالية " وهذا يكفى ، فالفكرة الاستقلالية هى لب الموضوع كله وهى ترتبط ارتباطا عضويا بتكوين الفيلق القبطى الذى جرى التفكير فيه من أجل حماية استقلال مصر ضد العثمانيين والمماليك بعد جلاء الفرنسيين والانجليز عنها0ومن هو لاسكارس هذاحتى ينسب اليه مشروع استقلال مصر، إنه مجرد تابع ليعقوب

يقوم بدور المترجم بينه وبين القبطان جوزيف إدموندز قائد السفينة الانجليزية –التى كانت تنقل يعقوب وأتباعه الى فرنسا– ، وهذا الموقف يوضحه لنا الدكتور أنور لوقا فى كتابه (ص 95) حيث يقول:

"ويبدو التناقض بين الرجلين من أول وهلة فى الرسالة التى أرفقها جوزيف إدموندزبالوثيقة0 فهو يشهد بمهابة يعقوب ، ورجاحة شخصيته ونفوذه ، وجدية محادثاته، بل وبحرصه على إبلاغ موضوعها الى القائد العام ومنه الى الحكومة البريطانية،وعلى تعهد له بعدم إفشائها تحسبا لعواقب الأمور0 أما عن لاسكارس فيقول جوزيف ادموندز :" إنه ذو عقلية متحفزة الخيال،وأظنه من أهل البيمونت (شمال إيطاليا ويقال إنه كان من فرسان مالطة الذين غادروا الجزيرة مع بونابرت 0)0 ولم أفلح فى أن أتبين هل هو عضو من أعضاء الوفد أم أن مهمته مقصورةعلى السكرتارية والترجمة "

ويعلق أنور لوقا على هذا بقوله "مقابل الثقة فى يعقوب ومسئولياته، يثير لاسكارس حيرة جليسه واستفهامه "لكنه لم يثر حيرة المتعصبين المصريين الذين فضلوا أن ينسبوا مشروع الاستقلال الى هذا المغامر المالطى حتى لاينسب الى يعقوب حنا القبطى0

0وكم ذا بمصر من المضحكات 0ولكنه ضحك كالبكا 0

لحسن الحظ أن هذه المضحكات لم تغرقنا جميعا فهناك من الرجال من يشهدون للحق وفى مقدمتهم المؤرخ الرائد محمد شفيق غربال والكاتب الصحفى الكبير محمد فهمى عبد اللطيف الذى حقق تاريخ الجبرتى والذى كتب فى جريدة "البلاغ" (22-9-1947) يقول" إن يعقوب كان أول سياسى مصرى فكر فى جعل المسألة المصرية مسألة دولية على أن تستقل مصر استقلالا تاما عن الحكم العثمانى وأن تكون باستقلالها هذا واسطة لكبح أطماع فرنسا وانجلترا وهما الدولتان اللتان كانتا تتصارعان لتوطيد النفوذ فى مصر والبحر المتوسط "

وفى نهاية عرضنا لهذه الآراء الهامة والمختلفة لابد أن نعود الى المؤرخ الوطنى الأمين الذى اكتشف وثائق هذا المشروع ضمن سجلات وزارة الخارجية البريطانية فأخرجها الى الضوء ليكشف المستور من حقائق تاريخنا فى فجر مرحلة الاستقلال، هذا المؤرخ الكبير هو :

الدكتور محمد شفيق غربال، مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بالجامعة المصرية ، التى عمدت الى تمصير دراسة التاريخ عن طريق التدريس باللغة العربية ، وكذلك بتوجيه الاهتمام إلى دراسة تاريخنا الوطنى الحديث0

تخرج محمد شفيق غربال فى مدرسة المعلمين العليا سنة 1915 وذهب إلى انجلترا لدراسة التاريخ حيث حصل على ليسانس الآداب من جامعة ليفربول سنة 1919 وعلى درجة الماجستيرفى التاريخ الحديث من جامعة لندن فى سنة 1924 عن بحث عنوانه " بداية المسألة المصرية وظهور محمد على "0 وقد نشر هذا البحث فى كتاب سنة 1928 وكما يقول الدكتور عزت عبد الكريم " وهو أول عمل علمى أصيل فى تاريخ مصر الحديث لأستاذ مصرى معتمد على وثائق أصلية بلغات مختلفة لم يسبق نشرها"

وقد أشاد المؤرخ الكبيرأرنولد توينى فى المقدمة التى كتبها لهذه الرسالة بالصفات التى يتحلى بها شفيق غربال والتى تجعل منه مؤرخاً مرموقاً0

وعند عودته عين أستاذاً للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا ومالبث أن أختير أستاذابكلية الآداب جامعة القاهرة، فأتيحت له الفرصة للتجديد والتطويرلمناهج دراسة التاريخ

وتوجيه التلاميذ ويقول الدكتور احمد عزت عبد الكريم: (1)

كانت " المدرسة" الرسمية مدرسة المؤرخين الأجانب من فرنسين وانجليز قد اتجهوا إلى كتابة تاريخ محمد على واسماعيل ، ورأى شفيق غربال أن يوجه تلاميذ مدرسته إلى البحث فى تاريخ الأمة المصرية والمجتمع المصرى ، كتاريخ التعليم والصناعة والطباعة والتجارة والفلاح المصرى 00 إلخ 00 ووجههم إلى الاهتمام بجمع المادة التاريخية الأصلية من مصادرها فكانوا الرعيل الأول من طلاب البحث المصريين اللذين ارتادوا دور الوثائق فى مصر ، ونقبوا فى محتوايتها ، وبذلك عاونوا أكبر معاونة فى تنظيمها وتنسيقها وتيسيرها للباحثين من بعدهم – وبذلك وضع شفيق غربال وتلاميذه الأساس لبناء التاريخ المصرى القومى فى العصر الحديث على أسس سليمة0

درس شفيق غربال الأصول التاريخية لتطوير مصر فى القرن التاسع عشر فكتب بحثه العميق " مصر على مفرق الطرق " وهو تحقيق لنص مخطوط من أيام

حملة بونابرت على مصر يحوى اجابات حسن أفندى كبير أفندية الرزناقة على أسئلة وجهها إليه بعض علماء الفرنسيين عن أحوال مصر على عهد العثمانيين 0 وقد قدم فى هذا البحث نموذجاً لنشر النصوص التاريخية نشراً علمياً محققا وفتح به ميدان البحث فى تاريخ مصر العثمانية0

كما درس غربال ظاهرة التقاء الشرق بالغرب أثناء الحملة الفرنسية على مصر ، وما صاحبها من تفكير فى مستقبل مصر السياسى على أساس الاستقلال ونشر هذه الدراسة بعنوان:

" الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة 1801 " الذى نشرته دار المعارف سنة 1932 بعد ذلك نشر كتابه " محمد على " فى سلسلة أعلام الإسلام 0 والكتاب ليس ترجمة لسيرة محمد على ، لكنه بحث عميق فى أصول المجتمع المصرى كما كان يعيش فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ثم تقصى دقيق لما طرأ على هذا المجتمع من تغيرات واسعة خلال النصف الأول من القرن الأخير .

استمر شفيق غربال مثايراً على التدريس والبحث والمحاضرة والاشراف على رسائل طلابه لم تصرفه عن ذلك عمادة كلية الآداب حين تولاها سنة 1939 و لا المناصب الادارية التى دعى إلى النهوض بأعبائها فى وزارة المعارف، ثم وزارة الشئون الاجتماعية (بين سنتى 40-54 مستشاراً فنياً لتعليم فوكيلا للوزارة وظلت

الأستاذية هى السمة الأصلية فيه ، لم تكن طابع حياته العقلية وانما كانت حياته الشخصية أيضاً فكان يتناول المسائل التى تعرض عليه فى مناصبه الادارية بالحلم والأناة والتواضع والحرص على الحق والآنفة من التعصب0

وظل شفيق غربال معنياً بالمسألة المصرية التى بدأ حياته العلمية بالكتابة فيها ، وكانت هذه المسألة قد تحولت من مجرد صراع بين الدول الأوربية الكبرى على السيطرة على مصر إلى كفاح وطنى قام به المصريون ضد الاحتلال البريطانى ما لبث هذا الكفاح أن تحول إلى السعى لحل القضية الوطنية بالوسائل السلمية ، فكانت المفاوضات التى بدأت من 1920 حتى انتهت 1954 بجلاء الانجليز عن مصر 0

واتجه مؤرخناً إلى دراسة المسألة المصرية فى مراحلها الأخيرة وذلك فى مقدمة كتابه " تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية " الجزء الأول 1884-1936 تناول فيها طائفة من الأحداث التى توالت على الميلاد ، كما تناول طائفة من الرجال ، اللذين شاركوا وكانوا لا يزالون يشاركون فى الحياة العامة ، ولم يمنعه هذا من التصدى للحكم على هذه الأحداث وهؤلاء الرجال ،لا حكم رجل السياسة – فهو لم يكن قط رجل سياسة – وانما حكم المؤرخ الباحث عن الحقيقة ، فجاء كتابه هذا – الذى منح جائزة الدولة – نموذجاً لكتابة التاريخ المعاصر فى تقصيه للمادة ، وقدرته الفائقة فى تأليف الصورة المركبة ، الشجاعة فى الحكم

، والاخلاص للحق وحده"،وهذه الصفات ذاتها هى التى تجلت فى تناوله لتـاريخ المعلـم يعقـوب حنـا ومشـروعه لاستقلال مصر0

نسيم مجلـى

الهرم فى 23 فبراير 2003

1- المجلة التاريخية المصرية-المجلد الحادىعشر1963